الفقيد بأمة . لتقديره له كزعيم وطنى يطالب باسترداد حقوق بلاده . وقد صدق فى هذا التشبيه فكل من يسعى فى تحرير بلاده فهو لا شك قلبها النابض وفكرها الثاقب إذا فقدته فلا حياة لها بعده — بعد سكون قلبها من خفقانه وخمود فكرها بعد توقده — حتى يقوم فيها بعده داعٍ أو دعاة يسعون فى تحقيق أمانى البلاد فتُبعث من جديد بعد الموت مع الأمم الحية .

والآن لنضع القلم عند هذا الحد مكتفين بهذا النذر من حياة (الشاعر الاجتماعى) الأدبية فقط . أما حياته الخاصة فلنترك الكلام عنها للمتصلين به من أبناء مصر المجيدين ولنترك الدهر منشداً بلسانه :

خالدَ الآثارِ لا تخشَ البلى ليس يبلى من له ذكرٌ خلَدْ

الخرطوم ابا - السودان : بشرى السيد أمين

سيرة حافظ

الى الشاعر البائس شاعر الانسانية المعذبة الناشر الحق والنور ، الشبيه بتلك الشمعة التى تذوب لتضىء لغيرها ، المتعلق بأهداب الوطن الجريح ، ذلك الذى هدمت آماله وبدّدت أمانيه ، وبعثرت أحلامه ومات وهو يردد « مصر فوق الجميع »

الى روحه الطاهرة المرفرفة بجناحيها فى سماء آلهة الشعر بجانب عرائس الجنات فى عالم الخلود ، اليك يا حافظ أهدى رسالتى . . . . .

١ — مولده

فى فجر يوم من أيام سنة ١٨٧١ بدير وط وأسرته فى عيدها الأوحد تستقبل ابنها الأوحد الذى أبت الأقدار أن تبعث به من عالمها الرهيب المجهول إلى عالم الخلد بصوره وآياته الا فى ذلك الوقت الأخير وقد رفع أبوه طرفه الى السماء مردداً : « اللهم لك الثناء العاطر والشكر الجميل » !

وظل ذلك الوليد العزيز ينعم بقبلات أبويه صباح مساء حتى بلغ السنتين أو يزيد ، ثم نُكِبَ بموت والده الذى تركه بين أحضان أمه التى أضناها الأسى وحزّبها الألم وقضت من بعده وهى تتمنى لو أن تفتدى ما فى حياتها من زينة وبهجة وسعادة ومال ببقائها ولو بضع سنين حتى ترى حافظها يسير سير الرجال

ويحدثها كأم وقد امتلأ عافية ونضارة وجمالاً ، وكفله خاله وربّاه وقد ضاعت ثروة أبيه وأضحى لا عائل له غيره .

٢ — طفولته

ليس أمامنا من المصادر والتحقيقات ما يشير إلى طفولة حافظ بكثير ولا قليل غير حادث يتمه المبكر هذا الذى أثّر فى تكوين شخصيته إلى حد أن يقول التونى عنها : « ويظهر أن لذلك اليتم المبكر أثراً فى تكوين شخصية حافظ الدفينة الحزينة فلقد كان حافظ فى قرارة نفسه كما سيتبين بعد حزيناً ، فكان إذا خلا إلى نفسه أو إلى صديق ظهرت خفايا نفسه ، وإذا قال الشعر كان عليه مسحة كبيرة من ذلك الحزن الدفين ولذلك خلا شعره من الفكاهة وخفة الروح التى عرف بها المرحوم الفقيد فى المجالس والسوامر » . . .

أجل ، فالحزن قد طبعه بطابعه الخاص حتى انه كان لا تستجيب إلى ندائه آلهة الشعر إلا إذا ما بكى ، وفى ذلك يقول رحمة الله عليه : « لا يطيب لى نظم الشعر إلا إذا ما كنت محزوناً » .

إذاً حُرِمَ ذلك الطفلُ أبويه وأضحى يتيماً محزوناً ، محروماً تلك القبلات الحلوة الأبوية ، وهذا العالم أمامه قطعة سوداء قاتمة صاغتها يد الحزن والأسى .

أجل ، فقد قضى سنى طفولته وهو ذلك الحزين اليتيم الذى لا يشعر بعطف أب أو حنان أم ، ومدارسه التى جاس خلالها من الابتدائية حتى الجندية والشعرية يحوطها الحزن من كل مكان !

٣ — تعليمه

دخل المدرسة الابتدائية ثم لما نال جائزة التجهيزية ساءل نفسه : ماذا أصنع ؟ وبأى مدرسة ألتحق ؟ وأى الرجال أحذو حذوه وأنسج على منواله ؟ فلم يظفر من نفسه بغير هذا الجواب : « الحربية والبارودى ! » لكنه عاد إلى نفسه وقال : لماذا ؟ فظفر بهذا الجواب : « ان قامتى المديدة الفرعاء وتركيبى القوى المتين هما الدليل الناصع على صلاحيتى للحرب ، وروحى الشعرية الجميلة التى يزورنى طيفها فى الامسية الحزينة والأصيل الضاحك هى التى تمكننى من القيادة العامة التى أتوق اليها ، وبذلك أحمل السيف والقلم عن جدارة واستحقاق » .

فكان له ذلك والتحق بالحربية وخرج منها برتبة ضابط وما لبث أن وزّع على السودان يحمل بين جنبيه قلباً مملوءاً بالآمال ينشد المجد وينظر إلى السماء .

لكنه تلفت حوله فى السودان فرأى شمساً محرقة تلفح الوجوه بسعيرها وزملاء يغلب عليهم الجهل والجدب الروحى ، وان ذلك الحلم الذى نشده طالباً أخذ ينهار ، وهنا تتفتح عيون شاعريته أو بعبارة أخرى مدرسته الشعرية .

٤ — حياته

رأى اليد الانجليزية تسيطر على الجيش المصرى فزأر لكرامته المهدورة ، ورأى جهل اخوانه وشمس السودان المحرقة تحول بينه وبين نعيم الشاعرية الذى ينشده فى ظلال الجزيرة وأنديه العلماء ومجالسهم ، ورأى فى السودان برغم ما حبته الطبيعة من صور الجمال ذلك الجدب الروحى الذى يمقته ، وشكواه تتراءى لنا من خلال أبياته التى بعث بها من السودان إلى صديقه بيرم وقال فى مطلعها :

نزحتُ عن الديار أروم رزقى وأضرب فى المهامه والتخومِ

إلى أن يقول :

ولولا سورةٌ للمجد عندى قنعتُ بعيشتى قنعَ الظليمِ

ومن كتابه إلى أستاذه الإمام محمد عبده الذى يسأله فيه انتشاله من وهدته هذه فيعده خيراً ويرجع اليه ثانية يسأله : « مثل كتابى إلى سيدى وأنا من وعده بين الجنة والسلسبيل » الى آخر هذا السجع المملول الممزوج ببعض المقطوعات الشعرية الرقيقة ويعده الامام ثانية خيراً وظل حافظ متبرماً إلى أن قامت ثورة الضباط المصريين وأبعد حافظ إلى مصر مغضوباً عليه رهن المحاكمة مشدوه الفكر مبلبل الخاطر حتى صدر عفو الخديوى ورجعت اليه طمأنينته وحريته . وكانت هذه الساعة هى أحرج ساعات حياته إذ أنه رأى بعينى رأسه فشل الثورة العرابية وأستاذه البارودى معرضاً للمحاكمة ونفوذ المستعمرين قد ازداد وأمله الجندى ينهار والكرامة المصرية كأنها لم تكُ شيئاً مذكوراً .

ولما استقرت الأمور بعض الشىء رجع حافظ ثانية إلى الخدمة لكنه ما لبث أن طلق الجندية طلقة بائنة لا رجعة فيها مردداً هذه الانشودة : « أى يوم عرفت الحائم غير سماء الحرية ونور السلام ! »

انقطع للشعر والترجمة والتأليف وعاش معيشة بوهيمية هى قطعة من خيال الشاعر الذى يأبى القيود والأقفاص ولو كانت من ذهب !

وعلى ما أذكر كان حافظ قد التحق بالمحاماة أمام المحاكم القديمة قبل اتصاله بالحربية وبعد ذلك واشتغل مع بعض أعلام المحاماة فى ذلك العهد .

ومنذ ذلك الحين وهو يرسل آياته التى أقضت جانب الاستعمار تارة والرجعية تارة أخرى ، والتى عرفت بأنها آيات الوطنية والاجتماع من شاعر الانسانية ومن شاعر النيل قبل كل شىء .

ولما أن تقدمت به السن رأى الحياة الأدبية راكدة آسنة وأُتيح له عطفُ ولاة الأمور حينئذ فالتحق بدار الكتب المصرية فى سنة ١٩١١ وبقى فيها حتى أوائل سنة ١٩٣٢ فخرمنا شعره جلّ هذه الفترة الطويلة حتى اذا ما انقضت وأُحيل إلى المعاش أرسل صيحاته التى اشتهر بها فى وجه الاستعمار والرجعية فى هذا العهد الأخير ، ولم تنقطع صيحاته هذي الا بموته فى ٢١ يوليو سنة ١٩٣٢ .

٥ — بؤسه

خير من فطن من الكتاب إلى بؤس حافظ الأديب التونى إذْ يقول: «هذا بؤس نفسانى روحانى ، وليس بؤس المادة والحاجة والطمع » .

أجل ! فبؤس حافظ ينحصر فى آماله المتهدمة وتماثيل مجده المحطمة وقصوره التى بناها فى الخيال ولعبت بها الرياح الهوج !

شاعرٌ من شعراء الانسانية يحمل القلم والسيف يهزّ بالأول أوتار القلوب بما يبعثه من الآيات الرائعة تارة ، وأخرى يبعث الدمع السخين من المآقى بأناته الشاكية من الظلم والظالمين والرجعية والمستعمرين وجهل أمة متأخرة تناوىء المصلحين وتشايع الرجعية الجاهلة وتؤيدها ونوم شرق راكد لا يفيق ، فالاستعمار يخنق الشعب والأمة تعبد الأصنام والموتى والشرق يقدّس الجمود والركود !

يود لو أن سيفه يعمل فى الدائرة التى خُلق لها كقائد عام فلا يمد جنودا بل يرى فلولا اثر فلول وهزيمة اثر هزيمة وما يتبع ذلك من المصائب والويلات .

فلما ذا لا يتملكه البؤس ؟ ولماذ لا تتهدم آماله ؟ ولما ذا لا يقول :

لكننى غير مجدود وما فتئت يدُ المقادير تقصينى عن الأرب

وقد غدوتُ وآمالى مطرحة وفى أموريَ ما للضبِّ فى الذنب

اى وربى ، كان له أن يقول :

وحتى قلّم الاخفاق ظفرى وحتى حطم الافراط نابى

بدلاً من قوله :

وحتى قلّم الاملاق ظفرى وحتى حطم المقدار نابى

الاخفاق اخفاقه كقائد عام ينشد حياة جديدة للجيل الجديد والاجيال المقبلة ، والافراط افراط الشعب فى جهالاته وضلاله وغيه وغفوته الشبيهة بالموت الابدى !

٦ — ملامحه وصفاته

مديد القامة ، قوى البناء ، ذو وجه صبوح ، وشاربين طويلين ، وعضل مفتول وصوت عذب ، وجسم متين خلق للجندية والكفاح .

وهو فى (مرآة البشرى) : يحب الجمال و يجتمع له ويكره القبح وينعى على أهله ، تجابه بذلك مجابهة . لا يتقى فى القول ولا يتحرف ، خفيف الظل ، عذب الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة . رائع النكتة ، بديع المحاضرة . إذا كتب لك يوماً أن تشاهد مجلسه أخذك عن نفسك حتى ليخيل اليك انك فى بستان تعطفت جداوله ، وهتفت على أغصانه بلابله . وأشرق نرجسه ، وتألق ورده ، فأذكرك طلعة الحب : تانك عيناه وهذا خده ! تنفس فيه النسيم بسحر هاروت ، فاعجب لمن ينشر هذا النسيم كيف يموت ! والبدر فى ملكه بين المجرة والجوزاء ، يخلع على الروض حلة فضية بيضاء . فلا تدرى أأمست السماء فى الروض أم أمسى الروض فى السماء ؟ كان متلافاً إلى حد كبير : فقد تجتمع له الالف ولا تمكث فى يده أسبوعاً ، متفنناً فى طعامه وشرابه إلى حد كبير.

فلننتقل الى رثائه ففيه مادة غنية خصبة تغنيك بعض الشىء ياصاحبى عن ثقل الرثاء وفنه المرذول بجانب شعرنا العصرى الجديد ، ذلك الشعر الانسانى الناظر الى السماء .

ان قصيدته فى رثاء الامام محمد عبده هى وايم الحق كتمثال صامت له ، فانظر اليه فى مطلعها :

سلامٌ على الاسلام بعد محمد سلام على أيامه النضرات !

أليس فيه من المتعة الفنية ما يحبب اليك الشاعر وشعره المتمثل فى قوله :

لقد كنتُ أخشى عادىَ الموت قبله فأصبحت أخشى ان تطول حياتى !

فن جزالة فى اللفظ ورصانة الى قوة فى المعنى والصياغة تراها فى هذه القصيدة أوبعبارة أخرى فى ذلك التمثال .

لكننى لم يرقنى قوله :

فيا منزلا فى عين شمس أظلنى وأرغم حسادى وغمّ عدائى

لان الشاعر فى موقفه الانسانى المشرف هذا ماكان يجدر به أن يهوى الى هذا الحضيض حيث الدنيا بما فيها من حقد وحسد وعداء .

وقد اتهمه الدكتور طه حسين فى تقليده لمسلم بن الوليد فى قصيدته « لاتدع بى الشوق انى غير معمود » لقوله فى استاذه البارودى «ردوا علىّ بيانى بعد محمود » .

وانى رغم تسليمى ببعض نظرية الدكتور طه فان هذه القصيدة والحق يقال ليست غير تمثال بديع للبارودى الذى أحبه حافظ ونسج على منواله فى الشعر ، وانه — أى البارودى — هو والمعرى هما اللذان أثرا على شعر حافظ بآثارهما التى أحبها كلّ الحب .

وتتجلى الشعبية الخالصة عند شاعرنا فى رثائه لرجال الوطنية كمصطفى كامل وفريد وزغلول ، فاسمع اليه فى قوله يرثى مصطفى كامل :

أرى جلالا ،أرى نوراً، أرى ملكاً أرى محياً يحيينا ويبتسمُ

الله أكبرُ ! هذا الوجه أعرفُه ! هذا فتى النيل! هذا المفرد العلمُ !

وخير رثاء له عندى قوله فى المرحوم قاسم أمين :

الحكمُ للايام مرجعُه فيما رأيت فنَمْ ولا تَسلِ

وكذا طهاة الرأى تتركه للدهر يُنضجه على مهلِ !

ولك أن تنتقل معى من رثائه الى وصفه فتجده قد أجاد الوصف رغم اقلاله واقتصاده . انظر اليه فى قصيدته عن « الشمس » :

نظر (ابراهامُ) فيها نظرةً فأرى الشكّ وما ضلّ اليقينْ

تجده يستمر معك فى نخامة معانيه وجزالته القاطعة الى أن يقول :

هى طلعُ الروض نوراً وجنى هى نشرُ الورد طيبُ الياسمينْ

فيحملك على أن تتغنى بهذه القطعة كانشودة عذبة طبعت بطابع الخلود . واقرأ معى وصفه هذا الذى وجهه الى صديقه عمون بك :

قصورٌ كأنّ بروجَ السما ء خدورُ الغوانى بأدوارها

فهو جميل الى حد ما ، بيد أنك ياصاحبي لوظللت تنقب فى صفحات الديوان فلن تعثر على قطعة وصفية فنية ممتازة مما تغنى به الشعراء المحدثون .

ولكنك لو تلمست لحافظ الاعذار فى اهماله تلك الجوانب الشعرية الخالدة فليس لك أن تلتمس العذر له فى اهماله « النيل » ذلك الاهمال المزرى به كشاعر النيل !

ألم يحلق بجناحيه أىّ يوم فى سماء النيل فى سياحة روحية ويرى آلهة الشعر وعرائس الحب وبنات الجمال تشدو بجماله الخالد على ممر الدهور والعصور حتى يصف لنا ما شاهد فى ثوب جميل من أثوابه الغانية التى كان يحوكها من نسج فؤاده ؟ !

يقولون إن حافظاً كان قوى الحافظة وخاصة فى استظهار روائع الشعر العربى، وقد يكون هذا صحيحاً ... لكننى أشك فى قوة حافظته لاسيما بعد أن تعدى طور الشباب الاول، ذلك لانه كان ضعيفاً فى اللغة الفرنسية لدرجة انه لم يقدر على ترجمة البؤساء ، وكتيبه الاخلاقى ضعيف كذلك لعدم احاطته باسرارها ، ولأنه لم يتكلم بها ولم يقرأها كالادباء الذين يحيطون باحدى اللغات للاضطلاع بآدابها وعلومها ، وهو كما يقول مطران : « يقول الشعر فى كل مكان يتفق له أن يخلو بنفسه ، ومن عادته دخول حديقة الازبكية بعد الظهر طلباً لتلك الخلوة » . وكان لا يهتم كثيراً بالنهضة العلمية وذلك لاختلاطه الكثير بعظمائنا الذين لاحظ لهم الا التندر والترجيلة والدعابة والمجون ـ أولئك الذين لا يتسع وقتهم لمسايرة الثقافة . وكان حافظ كريم الخلق طيب القلب الى حد كبير ، وكانت حياته الدراسية والجندية والشعرية والحكومية حياة رجل يفهم الحياة فى وضوح وجلاء .

٧ — آثاره

ان تحليل آثاره ونقدها هو بيت القصيد فى هذه الدراسة ، لكننى سأوجز فى ذلك حتى تتسع صفحات « أبولو » لمثل هذه الدراسة ، وابدأ الآن بالديوان .

الديوان فى ثلاثة أجزاء وينقصه جزء رابع لم يُطبع بعد . وأول شىء يطالعك فيه

المديح والرثاء تقليداً للشعراء الاقدمين . وأنا من أشد أعداء المديح والرثاء ،ذلك لاننى لا أجد فيهما تلك الآفاق الرحيبة التى خُلق الشاعر ليحلق فيها ولان آلهة الشعر يجب أن لا تتنزل من سمائها حيث الحب والحقيقة والجمال الى ذلك الدرك الأرضى حيث المادة والعبودية والضلال .

لكننى أَلتمس العذر لحافظ لانه كان يجد فى ذلك مايعينه على حياته المادية من جهة، ومن جهة أخرى كان يسير وراء العرف المتبع فى ذاك الوقت: « ليس الشاعر بشاعر الا اذا أجاد المديح والرثاء » !

أنظر اليه فى مديحه للجناب الخديوى : أترى غير نظم لاروح له ، قاله صاحبه مجاراة للوقت والتقاليد ، ومنافسة للشاعر شوقى الذى استلب منه الامارة ؟! وماذا كان يَعنيه من قوله الى الجناب الخديوي (ص ٢٣ من الديوان) :

تشدو وترهف بالاشعار مرتجلا وتبرز القول بين السحر والعجب !

وانظر اليه فى قوله من المديح :

تعمدت قتلى فى الهوى وتعمدا فما أثمت عينى ولا لحظه اعتدى !

أليس يستوقفك هذا البيت إلى درجةأن تقرأ غيره كقوله فى المديح هذا أيضاً :

ولو أنهم قدّوا غدائر فرعها لحاكوا له منها نقابا إذا بدا

اذاً ليس لنا ان نقف وإياك أمام هذا المديح وغيره لأننا فهمنا أن الشعر غير المديح !

ومن هذا الشعر الصناعى قوله :

خمرة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح فى ليل عرس

مُد رآها فتى العزيز مناماً وهو فى السجن بين هم ويأس

أعقبته الخلاص من بعد ضيق وحبته السعود من بعد نحس !

وله قصيدة فى وصف أزمة نفسية، جاءت له مهلهلة الاوصال مفككة الأوصال مبتذلة

من واجد منفّر المنام طريد دهر جائر الاحكام

وقد نظمها وأفرغها من الروح الشعرية ففاضت روحها عند نظمها !

« • »

ليس يبقى أمامنا من ديوانه غير شعره الوطنى الاجتماعى ،وهو على حد قول اكثر

النقاد ميزته الواضحة التى عُرف بها فى حياته كشاعر وطنى ضرب فى البحوث الاجتماعية بسهم وافر ، وسخر الشعر لأغراضه ، فكان له كل ما أراد من جزالة لفظ وقوة معنى .

رأى الشعب يستكين لظلم المستعمر الغاصب ، ويستكين للرجعية الجاهلة ، ويستكين للتقاليد الشائعة والخرافات الفاشية ، يعبد الاصنام ويقدم القرابين للموتى والمعتوهين ، بعيداً كل البعد عن الحرية والنور ، فقال :

ودائى كداء الدين عزّ دواؤه وحظى كحظ الشرق نحسٌ كواكبه
فيا ليت لى وجدان قومى فأرتضى حياتى ولا أشقى بما أنا طالبه
ينامون تحت الضيم والأرض رحبة لمن بات يأبى جانب الذل جانبه

وخاطبَ أستاذه الامام يشكو قومه الذين عبدوا الاصنام والموتى وما يزالون يعبدون الأصنام والموتى :

رأوا فى قبور الميتين حياتهم فقاموا إلى تلك القبور وطوّفوا
وباتوا عليها جاثمين كأنهم (على صنم فى الجاهلية عُكف)

وحدبه وعطفه يطلان علينا من خلال قصيدته « آلامنا وآمالنا » التى يخاطب بها المرحوم الامير (السلطان) حسين كامل :

لعمرك ما أرقتُ لغير مصر وما لى دونها أمرٌ يرامُ

الى أن يقول :

أرى شعباً بمدرجة العوادى تَمخَّخَ عظمه داءٌ عقامُ
إذا ما مرّ بالبأساء عامٌ أطلّ عليه بالبأساء عامُ

وانظر اليه فى قصيدته « حادث دنشواى » ذلك الحادث التاريخى الذى تذكره الانسانية المعذبة بقلب ملىء بالحسرات وبدمع هتون أشبه بدمع الثاكلات ، تذكره كنكبة فى تاريخ البشرية الظالمة التى يفتك قويها بضعيفها ، والتى اذا ما ذكرناها ذكرنا قوميتنا المهدورة وحقنا المضاع :

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا ؟
انما نحن والحمام سواءٌ لم تغادر أطواقنا الاجيادا !

الى أن يقول :

ليت شعرى أتلك محكمة التفـ تيش عادت أم عهد نيرون عادا ؟!

أليس هو وشعره المرآة الصادقة التى تنعكس عليها صور الشعب المتألم الراسف فى اغلال الاستعباد وقيود الهوان ، يئن وما لصوته من سميع ؟

بلا شك هو أول شاعر اجتماعى فى الشرق العربى استطاع أن يضرب على الوتر الحساس ويرضى العامة والخاصة ويصبغ شعره بصبغة تميزه عن غيره وتجعله أقرب إلى جانب الحق والخلود .

وانظر اليه وقد ضاق ذرعاً بشعبنا المسكين الهـادىء الذى جرحت كرامته ولم ير فى ذلك من حرج :

أنا لولا أن لى من أمتى خاذلا ما بتُّ أشكو النوبا
أمةٌ قد فتَّ فى ساعدها بغضها الأهل وحبُّ الغربا

والى قوله من قصيدة أخرى :

لقد غضب الناس من قبلنا لسلب الحقوق ولم نغضبِ
أمورٌ تمرّ وعيش يمرّ ونحن من اللهو فى ملعبِ
وشعبٌ يفرّ من الصالحا ت فرارَ السليم من الأجربِ

وانظر اجتماعيته الخالدة التى قالها بمناسبة افتتاح مدرسة بور سعيد للبنات ومطلعها :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى فى حبِّ مصر كثيرةِ العشاقِ

والتى جمعها فى هذا البيت الخالد :

الامُّ مدرسة إذا أعددتَها أعـددتَ شعباً طيبَ الأعراقِ

وانظر الى قصيدته فى وداع اللورد كرومر إذ يقول :

رمى دار المعـارف بالرزايا وجاء بـكلّ جبـارٍ عنيدِ
يدكُّ بحوله ويتيه تيهـاً ويعبث بالنهى عبثَ الوليـدِ

وإن أنسَ لا أنسَ عتبه على مصر فى أبياته التى يقول فى مستهلها :

ماذا جنيتِ وما جنـاه بنوكِ أظلمتهم يا مصرُ أم ظلموكِ ؟

ونداءه فى سبيل الوئام بين مصر والشام :

لمصر أم لربوع الشام تنتسبُ هنا العلا وهناك المجـد والحسبُ ؟

وشعره الوطنى ينطق بصدق إخلاصـه ووطنيته الجائشة الفياضة التى عُرف بها الفقيد فى حياته .

ومن شعره الوطنى الذى لم ينشر فى المطبوع من ديوانه قصيدته التى نشرها «البلاغ الأسبوعى» بعدده الأول و مطلعها :

قد غفونا وانتبهنا فاذا نحن غرقى وإذا الموتُ أمَمْ

وانى أترك بقية شعره للكتاب الذى سيصدر عنه، واكتفى الآن بالتحدث عن بقية آثاره ،ولكننى لا أعذر حافظاً بأى حال من الأحوال فى أهماله الثورة المصرية وعدم ذكره أى شىء عنها يستحق أن يُشادَ به .

(ليالى سطيح)

أنشأ حافظ (ليالى سطيح) فى مواضيع اجتماعية على مثال حديث عيسى بن هشام للمويلحى الذى اشتهر به فى ذلك العهد شهرة واسعة . ولكن كتاب ليالى سطيح يختلف كثيراً عن حديث عيسى ، ذلك لأن حافظاً باعد بينه وبين ذلك السجع المملول الذى بنى عليه حديث عيسى ، وليس معنى هذا ان ليالى سطيح خالية من السجع قوية الأسلوب ، بل انّ سجعهـا أقل من سجع حـديث عيسى بكثير وأسلوبها أقرب الى أسلوبنا الحديث

وهى نواة القصة المصرية الحديثة التى كنا نودّ من حافظ أن يقتحم أبوابها لو أنه راعى فيها الأسلوب والشكل والوحدة الفنية . ومناقشة ما جاء بليالى سطيح من الآراء يحتـاج الى أكثر من صفحات « ابولو » ، فعسى أن أوفق الى نقـده وتحليله فى فرصة أخرى .

(البؤساء)

قصة عالمية من الأدب الرفيع لفيكتور هوجو ، ترجمها حافظ — استغفر الله بل اقتبس منهـا جزأين صغيرين ولم يستطع إتمام ترجمتها لما لاقاه من المشقة والعناء لعـدم تمكنه من أسرار اللغة الفرنسية من جهـة ، ومن جهة أخرى لغرامه المنقطع

النظير باللفظ مما حشده بالترجمة العربية ، وبالرغم من أن هوجو اشتهر باغراقه فى اختيار ألفاظه أغرق شاعرنا أيضاً فى اختيار ألفاظ الترجمة العربية حتى بعدت عن الأصل الفرنسى.

ولو قارنت بين الترجمة والأصل الفرنسى لظهرت الاختلافات التى نأخذها على حافظ وحدت به الى أن لا يقدر على اتمام الترجمة ، وسنبين ذلك كله فى فرصة أخرى .

أما كتابه فى التربية والاخلاق أو بعبارة أصح كتيبه فقد نقله الى العربية فى اسلوب سليم وعبارة سهلة تتفق ومشارب أطفالنا وللأسف لم يترجمه جميعه بل ترجم منه جزأين أيضاً !

وترجم كتابه فى الاقتصاد هو ومطران ترجمة دقيقة يرجع الفضل فى دقتها واستيعابها لمطران لا لحافظ !

٨ — تجديده

بالرغم من نسجه على منوال الشعراء القدماء فله فى الشعر نظرة أقرب الى نظرتنا ، ولو أنه لم يبرهن على ذلك الا بشعره الاجتماعى وبمنظومته الصغيرة التمثيلية «عادة بيروت» التى لا يصح اعتبارها قطعة فنية تمثيلية كما تكون القطعة الفنية التمثيلية. بل هى عندى قصيدة جديدة لحافظ ومحاولة يسيرة لتجديده لا أكثر ولا أقل ، وكانت سنحت له الفرصة الفنية بوجود تلك المادة الخصبة التى تسعف الشاعر الموهوب بما يتطلبه منه الفن من حق وجمال وتجديد يظهر لنا من قصيدته التى يقول فيها للشعر : « ضعتَ بين النهى وبين الخيال » .

٩ — شعره

من أفخم روائع الشعر العربى ، تغلب عليه الجزالة والرصانة والقوة ، ولو كان له الخيال والخصب والثقافة الحقة لخلق لنا من الآيات ما تنظر اليه الأجيال القادمة بعين الاعجاب .

١٠ — لمحة خاطفة

يعتب الرافعى على فن الترجمة خلوه من النقد التحليلى من جهة ، ومن جهة ثانية لانه لا يتعدى الشرح والتفسير ولانه ليس المثل الاعلى الذى ينشده الناقد الهادم النافذ البصيرة. ونحن من أشد أنصار النقد التحليلى ومن أشد أنصار الهدم متى

وجدنا أن الأساليب والنماذج الشعرية أو الأدبية أو الفنية التى تقدم الينا مهلهلة سقيمة لا تتفق والمثل العليا التى نتشبث بها فوق غرامنا بالترجمة التحليلية التى تساعدنا على فهم الشاعر أو الأديب أو الفنان لانها بمثابة التحقيقات عند القاضى النزيه !

ولابد أن تسألنى يا صاحبى لماذا أغفلت هذه الناحية النقدية عند حافظ فاجيبك بان شعر حافظ فيه من السذاجة والبساطة والصدق والجمال ما يجعل الناقد يقف معه موقف الصداقة والحدب لا موقف العداء .

فماذا تطلب من حافظ ونقده وقد أجاد الرجل الرثاء ونبغ فيه وشارك الشعب فى آلامه وآماله وأضحت رسالته رسالة المصلح الاجتماعى الذى تحبه الانسانية المعذبة والعدالة والقانون ؟

اذاً ليس لنا أن نغلو فى نقده كما نغلو فى نقد شوقى أو العقاد أو الزهاوى أو أبى شادى لأن لكل منهم عوالمه التى حلق فى سماواتها ومثله العليا التى نشدها . ولابد لكل واحد منهم أن يدفع الثمن غالياً لأن المثل العليا لا تعرف الهوادة ولا اللين ؟

أحمد محمد عيسى

الشاعر البائس

حياته — الكتب التى قرأها — الشعراء الذين تأثر بهم — نظرات فى شعره
مظاهر البؤس فيه — اسباب بؤسه — حسنات هذا البؤس وسيآته

منذ نصف عام تقريباً أخرج الدكتور أبوشادى محرر « أبولو » كتابا خاصاً بذكرى المغفور له أحمد شوقى بك حشد فيه شتيتاً من الدراسات المستفيضة ، والقصائد الرائعة لكبار الكتاب والشعراء فى مصر وفى غير مصر

وسيظل هذا السفر القيم الذى أتيح لى أن أساهم فيه بنوع من هذه الدراسات خير مرجع لمن يريد الكتابة عن هذا الشاعر الخالد فى المستقبل .